١٠

انفـرادات السيوطـي وتعليقـاته البلاغيـة في تفسير: قطف الأزهار في كشف الأسرار

عرض ومناقشة

(سورة البقرة أنموذجًا)

د. عطا اللّه بن جضعان العنزي

الأستاذ المساعد بكلية العلوم والآداب
جامعة الحدود الشمالية

• حصل على درجة الماجستير من كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بأطروحته (بلاغة اللف والنشر في النظم القرآني).
• نال درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بأطروحته (الفك والإدغام في النظم القرآني).

E : dr.atallah2@gmail.com

الملخص

موضوع البحث: انفرادات السيوطي وتعليقاته البلاغية في تفسير «قطف الأزهار في كشف الأسرار»: عرض ومناقشة (سورة البقرة أنموذجًا).

أهداف البحث: تسليط الضوء على أهم انفرادات السيوطي البلاغية، وتعليقاته البيانية، في تفسيره «قطف الأزهار في كشف الأسرار»، وعرضها ومناقشتها، ومحاولة دراسة هذه الانفرادات، والتعليقات البلاغية.

منهج البحث: المنهج التحليلي.

أهم النتائج: تفسير قطف الأزهار يغلب عليه النقل من كلام العلماء، لكنه مع ذلك يحتوي على كثير من الآراء البيانية، والملامح البلاغية، التي ذكرها مؤلفه تعقيبًا على كلام غيره من العلماء، أو تفرّد بها دون أن يلمحها من قبله.

- يهتم السيوطي بالفنون البلاغية، ويكشف عن إعجازها، ويجلّيها تجليةً واضحةً، فلا يكاد يترك في كتابه آيةً فيها ملمح بيانيّ، أو فن بديعيّ؛ إلا وأشار إليه.

التوصيات: تُعدّ انفرادات السيوطي وتعليقاته البلاغية من أهم الملامح التي يجب على الباحث البلاغي التنبه لها، والاهتمام بها، فكتاب قطف الأزهار يعد من أهم كتب السيوطي، حيث تناول فيه المؤلف آيات القرآن الكريم بالشرح والتفسير، وبيان ما فيها من فنون بلاغية، وصور بديعية، ولمحات إعجازية، نقلًا عن غيره، أو اكتشافًا من نفسه.

الكلمات المفتاحية: انفرادات، اختيارات، البلاغة، قطف الأزهار، البقرة.

المقدمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على الرسول المصطفى، وعلى آله وصحبه أولي الفضل والنهى، وبعد:

فمما لا شك فيه أن كتب التفسير من أهم المصادر والمراجع التي يعتمد عليها الدارسون والباحثون لبلاغة القرآن الكريم وإعجازه، وقد تبارى السابقون والمعاصرون لنيل هذا الشرف العظيم، والفضل الجزيل، ومن هؤلاء الأفاضل: العالم المجتهد جلال الدين السيوطي، أحد علماء القرن التاسع الهجري، الذي برز في العديد من الفنون والعلوم، ومن هذه العلوم علم التفسير، فله العديد من الكتب في تفسير القرآن الكريم وعلومه، ومن هذه الكتب تفسيره المعنون بـ(قطف الأزهار في كشف الأسرار)، وهو تفسير جمع فيه من الفوائد الشيء الكثير، والعلم الغزير، وخلاصة ما توصل له في علم التفسير، فهو يهتم بالآيات القرآنية، وما فيها من ملامح بلاغية، فيكشف عن إعجازها، ويسلط الضوء على نظمها، ويبين محاسنها، فلا يكاد يترك في كتابه آية فيها ملمح بياني، أو فن بديعي، إلا وأشار إليه، نقلًا عن غيره من العلماء، أو اكتشافًا من تلقاء نفسه.

والسيوطي في كتابه يكثر من النقل عن غيره من العلماء، حتى يكاد يكون كتابه كله نقولات، وقد يخرج في بعض الأقاويل عن مجرد النقل، فيعقب على كلام أحدهم، ويذكر رأيه، وقد ينفرد برأي لم يسبقه إليه أحد، ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث، لتسلط الضوء على أهم اختيارات السيوطي البلاغية، وترجيحاته وانفراداته البيانية، فهذا البحث يحاول أن يكشف عن هذه الاختيارات والانفرادات، ويعرضها، ويناقشها، وهل هي انفرادات حقًّا كما ظنّها المؤلف، أم هناك من سبقه إليها؟ ويحاول كذلك أن يدرس هذه التعليقات والترجيحات، ومن وافقه عليها، ومن خالفه من العلماء السابقين أو المعاصرين له.

ونظرًا لكثرة هذه الانفرادات والتعليقات والاختيارات، ونظرًا لمحدودية عدد الصفحات في مثل هذه الأبحاث، آثرت أن أدرس المواضع الموجودة في سورة البقرة فقط، وأترك الباقي لأبحاث أخرى، أو لباحثين آخرين.

وقد بدأ هذا البحث بتمهيد، فيه نبذة عن المؤلف، نسبه ونشأته، وطلبه للعلم، ونبذة

أخرى عن هذا الكتاب، ومنهج مؤلفه فيه، ثم قسمت البحث لمبحثين، **الأول**: يتحدث عن انفرادات السيوطي وتعليقاته البلاغية من بداية سورة البقرة إلى نهاية الجزء الأول، **والمبحث الثاني**: يتحدث عن انفرادات السيوطي وتعليقاته البلاغية على كلام من سبقه من العلماء، من بداية الجزء الثاني وحتى نهاية السورة، وفي كلا المبحثين نظرت في الشواهد والمواضع محل الدراسة والبحث، فبينت موضع الشاهد، وكلام السيوطي فيه، ثم نظرت في كلام العلماء السابقين، المخالفين والموافقين، ورأيهم فيما ذهب له السيوطي، وهل سبق أحد منهم لهذا القول والرأي، أم أن السيوطي تفرد به، وسبق إليه؟

وأهمية هذا الموضوع تكمن في عدم دراسة هذه الانفرادات والاختيارات البلاغية، دراسة وافية، دراسة تهتم باختيارات السيوطي، وانفراداته، وتعليقاته البلاغية في تفسيره قطف الأزهار، وتقارن رأي السيوطي، برأي غيره من العلماء، **وحسب بحثي المتواضع لم أجد دراسة سابقة**، أو بحثًا علميًا متكاملًا يتكلم عن هذا الموضوع، ويسلط الضوء على جهد السيوطي البلاغي في تفسيره قطف الأزهار، إلا رسالة علمية واحدة، ليست في نفس التخصص، لكنها تنهج نفس النهج، وهذه الرسالة العلمية قدمت لنيل درجة الماجستير في القرآن وعلومه، من كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عام ١٤٢٨هـ، للباحث: علي بن عبد الرحمن النجاشي، وهي رسالة تدور حول اختيارات السيوطي وترجيحاته، في كتبه المتعلقة بعلوم القرآن جمعًا ودراسة، وموازنتها باختيارات العلماء الآخرين وترجيحاتهم، وذلك بالرجوع إلى كتب السلف المعتمدة في علوم القرآن، والتفسير، إضافة إلى بعض الدراسات المتخصصة في القراءات، وأحكام القرآن، ومشكله وغريبه.

وهذه الرسالة تتناول الأبحاث المتعلقة بالقرآن الكريم، في كتب السيوطي جميعها، المختصة بعلوم القرآن، مثل: (التحبير في علم التفسير)، و(الإتقان في علوم القرآن)، و(معترك الأقران في مشترك القرآن)، و(تناسق الدرر في تناسب السور)، و(لباب النقول في أسباب النزول)، و(مفحمات الأقران في مبهمات القرآن)، و(قطف الأزهار في كشف الأسرار)، و(مراصد المطالع في تناسق المقاطع والمطالع)، و(المهذب فيما وقع في القرآن من

المعرب)، وكانت الدراسة تقوم على رصد الموضوعات المتعلقة بأسباب النزول، وجمع القرآن وترتيبه، ومعرفة المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، وإعراب القرآن، وشرح مفرداته، إلى غير ذلك مما له صلة بعلوم القرآن، ومن الواضح أن هذه الدراسة لا تختص بكتاب مستقل، ولا فن معين، بل هي عامة في كتب علوم القرآن جميعها، وموضوعاته المختلفة والمتشعبة، لكن بحثي هذا يتناول كتابًا واحدًا، هو تفسير قطف الأزهار في كشف الأسرار، ويدرس فنًّا مستقلًّا، هو بيان القرآن وبلاغته وإعجازه.

واتبعت في بحثي هذا المنهج التحليلي، فتناولت الآية محل الدراسة والبحث، وبينت رأي السيوطي فيها، ثم تتبعت رأي العلماء السابقين، ووضحت موقفهم، ومدى موافقتهم ومخالفتهم لرأي السيوطي.

وختامًا أسأل الله التوفيق والسداد، وأسأله سبحانه أن يعفو عن الزلل، ويغفر الخطأ، ويستر العيب، إنه ولي ذلك والقادر عليه. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

١ - نبذة عن جلال الدين السيوطي

نسبه ونشأته: ذكر السيوطي نسبه كاملًا في كتابه (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة)، فاسمه هو: عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الأسيوطي.

ونسبته بالخضيري، نسبة إلى الخضيرية، محلة ببغداد؛ ويذكر السيوطي عن جده الأعلى أنه كان أعجميًا أو من الشرق، هكذا سمع من والده، والأسيوطي نسبة إلى أسيوط، المدينة المصرية، الواقعة غرب النيل، وهي أكبر محافظات الصعيد، وأكثر المصادر تسميه بالسيوطي، وقل من يسميه الأسيوطي، غير أن هذه الأخيرة تسميته لنفسه في كتابه حسن المحاضرة.

ولد السيوطي بعد المغرب، من ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة. ونشأ يتيمًا، فحفظ القرآن وعمره دون ثماني سنين، ثم حفظ العمدة، ومنهاج الفقه والأصول، وألفية ابن مالك؛ وشرع في الاشتغال بالعلم، من مستهل سنة أربع وستين وثمانمائة، فأخذ الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ، وأخذ الفرائض عن العلامة فرضي زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساحي، ولزم في الحديث والعربية الشيخ الإمام العلامة تقي الدين الشبلي الحنفي، ولزمه أربع سنين، ورزق التبحر في سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع؛ على طريقة العرب والبلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة، له الكثير من المؤلفات والمصنفات، في شتى أنواع العلوم المختلفة[(١)].

من شيوخه الذين تتلمذ عليهم: الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، وشمس الدين محمد بن موسى بن محمود السيرامي الحنفي (ت٨٩١هـ)، وعلم الدين البلقيني (ت٨٦٨هـ)، وشرف الدين المناوي (ت٨٧١هـ)، وتقي الدين الشمني (ت٨٧٢هـ)، ، ومحيي الدين الكافيجي (ت٨٧٩هـ).

(١) ينظر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، السيوطي (١/ ٣٣٥-٣٣٨).

ومن تلاميذه الذين درسوا عليه: شمس الدين الداودي (ت٩٤٥هـ)، وشمس الدين محمد بن عبدالرحمن العلقمي (ت٩٦٨هـ)، وابن طولون (ت٩٥٣هـ)، وشمس الدين محمد بن يوسف الشامي الصالحي (ت٩٤٢هـ)، وعبد القادر بن محمد الشاذلي المؤذن المصري الشافعي (ت٩٣٥هـ)، وأبو محمد أحمد بن إياس الحنفي(ت٩٣٠هـ)[١].

٢- نبذة عن كتاب (قطف الأزهار في كشف الأسرار):

يُعدّ هذا الكتاب من أهمّ كتب السيوطي، حيث تناول فيه المؤلف آيات القرآن الكريم بالشرح والتفسير، وبيان ما فيها من فنون بلاغية، وصور بديعية، ولمحات إعجازية، يقول السيوطي في مقدمة كتابه: «وهذا كتاب شفعت به تلك[٢]، ونظمته معها في سلك، في أسرار التنزيل أذكر فيه جمع ما وصل إلى علمي من كلام العلماء في النظم القرآني: من أسرار التقديم والتأخير، والتأكيد، والحذف والإيجاز، والإطناب، والنكت البيانية...، والأنواع البديعية...، وأُنبِّه على القراءات المختلفة المشهورة والشاذة، ... وأبيّن مناسبة ترتيب السور، والخفيّ من مناسبات الآيات، إلى غير ذلك مما تراه من النكت والأسرار»[٣].

وواضح من كلام السيوطي أنه يهتمّ بالأمور البلاغية، والكشف عن إعجازها، وتجليتها تجلية واضحة، فلا يكاد يترك في كتابه آية فيها ملمح بياني، أو فن بديعي، إلا وأشار إليه، نقلًا عن غيره من العلماء، أو اكتشافًا من تلقاء نفسه، وقد وصل السيوطي في تفسيره لآي القرآن الكريم في هذا الكتاب إلى سورة التوبة، عند الآية (٩٢)، وقد قال تلميذه محمد بن محمد السنهوري- الذي انتهى من كتابة النسخة الثانية لهذا التفسير سنة ٩١٧هـ-: « هذا آخر ما انتهى إليه شيخنا، حافظ العصر المجتهد، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن السيوطي... »[٤].

(١) ينظر: قطف الأزهار في كشف الأسرار، السيوطي (١/ ٣٣-٣٩).

(٢) اسم الإشارة يعود إلى الكتب التي ألّفها في علوم القرآن قبل أن يؤلّف تفسيره: قطف الأزهار، فهذا التفسير مكمل للكتب التي قبله، مثل: تفسير (ترجمان القرآن)، و(الإتقان في علوم القرآن)، وكتاب (الإكليل في استنباط التنزيل) و(لباب النقول) وهو في أسباب النزول، وكتاب (معترك الأقران في مشترك القرآن)، و(مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن)، وكتاب (خمائل الزهر في فضائل السور).

(٣) قطف الأزهار في كشف الأسرار، السيوطي (١/ ٩٥-٩٨).

(٤) المرجع السابق (١/ ٨٥).

والنسخة الموجودة والمطبوعة من هذا التفسير تحمل الجزء الأول منه، ولعل هذا هو ما توصّل له المؤلف قبل وفاته، أو أن هناك جزءًا آخر، لكن لم يصل إلينا، ولم يتَسَنَّ لأحد الحصول عليه، وتحقيقه، وإظهاره للناس.

وقد حقق الدكتور أحمد بن محمد الحمادي هذا التفسير، ودرسه دراسة تحليلية قبل أن يبدأ بتحقيقه، فأشار في دراسته إلى عصر المؤلف من الناحية السياسية، والاقتصادية، والعلمية، ثم عرّج على حياة المؤلف، وطلبه للعلم، وشيوخه، وتلاميذه، ومؤلفاته، ثم أشار إلى مصادر الكتاب، وأهم العلماء الذين نقل عنهم، وأخذ من كتبهم، ثم تطرق لمنهج المؤلف في تفسيره، ثم قارن بين كتابي المؤلف (قطف الأزهار) و (معترك الأقران)، ثم وصف المخطوطات التي وجدها، واعتمد عليها في تحقيقه[(١)].

٣- مصادر الكتاب:

كان السيوطي في تفسيره كثير النقل عن غيره، حتى يكاد يكون كتابه كله نقولات، وقد يخرج في بعض الأقاويل عن مجرّد النقل، فيُعقِّب على كلام أحدهم، ويذكر رأيه، وقد ينفرد برأي لم يسبقه إليه أحد، وهناك مصادر عديدة أكثر النقل عنها، وأشار إليها، إما تصريحًا، أو تلميحًا، وهناك مصادر أخرى كان قليل النقل عنها، وأهم العلماء الذين أكثر النقل عنهم:

أبوحيان (ت٧٤٥هـ)، والكرماني (ت٥٠٥هـ)، والرازي (ت٦٠٦هـ)، وابن عطية (ت٥٤١هـ)، والزمخشري (ت٥٣٨هـ)، والراغب (ت٥٠٢هـ)، وابن جماعة (ت٧٣٣هـ)، والأصفهاني (ت٧٤٩هـ)، والبيضاوي (ت٦٨٥هـ)، وسعد الدين التفتازاني (ت٧٩١هـ)، والزملكاني (ت٦٥١هـ)، والطيبي (ت٧٤٣هـ).[(٢)]

- ومن أهم الألفاظ التي يستخدمها السيوطي في الدلالة على اختياراته وانفراداته البلاغية في تفسيره: (وأحسن من هذا)[(٣)]، (وهو عزيز في القرآن)[(٤)]، (وهو نوع غريب لم أرَ

(١) ينظر: قطف الأزهار، السيوطي (١/ ١٥-٨٥).
(٢) ينظر: المرجع السابق (١/ ٥١-٥٩).
(٣) ينظر: المرجع السابق(١/ ٣٢١).
(٤) ينظر: المرجع السابق (١/ ٤٥٠) (١/ ٣٩٥) (١/ ٤٥٠) (١/ ٤٥٣).

من نبّه عليه)[١]، (ظهر لي)[٢]، (وأفردتها بتأليف)[٣]، (لم أرَ من تعرّض لذلك) (ولم أرَ من تنبّه له)[٤]، (وظهر لي في وجه الختم بها ما لم أقف عليه لأحد)[٥].

(١) ينظر: قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٤٠٥).
(٢) ينظر: المرجع السابق (١/ ٢٧٩).
(٣) ينظر: المرجع السابق (١/ ٥٠٩).
(٤) ينظر: المرجع السابق (١/ ٥٧٩) (٢/ ٩٣٥).
(٥) ينظر: المرجع السابق (٢/ ١١٢٦).

المبحث الأول:
انفرادات السيوطي وتعليقاته البلاغية إلى نهاية الجزء الأول

١ - قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة:٢٦]

نقل السيوطي كلام المفسرين عما ورد في هذه الآية من بلاغة وتفسير، وفي آخر المقطع تطرق لمواضع الطباق والمقابلة، ونقل كلامًا لابن عقيل (٧٦٩هـ) يذكر فيه مواضع المقابلة، ثم علّق عليه، وانفرد بذكر موضع جديد لمقابلة لم يتطرّق لها أحد ممن نقل عنهم.

يقول: «قال ابن عقيل: وقد وقع في هذه الآيات خمس مقابلات، بين (بعوضة) و (ما فوقها)، وبين (آمنوا) و (كفروا)، وبين (يضل) و (يهدي)، وبين (ينقضون) وبين (يقطعون)، و(يوصل) ذكره بعضهم، **قلت:** وسادس: بين (يعلمون) و (يقولون)، لأن المراد بالأول الاعتقاد بالقلب، وبالثاني: القول الصادر عن اللسان، وهما خلافان في الجملة، وذلك كان في الطباق والمقابلة»[(١)].

فهنا يذكر السيوطي أن في الآية تضادًا بين (يعلمون) و (يقولون)، فالتضاد ليس بين اللفظتين، بل فيما تحملانه من معانٍ، فالعلم لا يكون إلا بعد اعتقاد في القلب، والقول يكون باللسان، فقابل بين القلب واللسان.

ولم أعثر على قول لأحد المفسرين أو البلاغيين السابقين للسيوطي يذكر أن هناك تضادًا أو مقابلة بين (يعلمون) و (يقولون)، إلا إشارة من ابن عرفة (٨٠٣هـ) في تفسيره، فقد ذكر كلامًا قريبًا من هذا، وأن في الآية حذفًا، والتقابل يكون في الكلام المحذوف، لكنه رجّح أن تكون الجملة الثانية وهي: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ ﴾ في موضع الحال من الجملة الأولى، وهي: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ ﴾، وليست جملة مستأنفة، يقول: « الآية

(١) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٢٢٣-٢٢٤).

فيها حذف التقابل، أي: فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم، ويقولون ذلك بألسنتهم، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلًا، ويعتقدون ذلك بقلوبهم، ولذلك لم يقل في الكافرين: بماذا أراد ربنا بهذا مثلًا، ويمكن أن تكون هذه الجملة في موضع الحال من الأولى، وهو أصوب من كونها استئنافًا؛ لأن المؤمنين إذا اعتقدوا أنه الحق حالة وجود المخالف والمعاند لهم فيه، فأحرى أن يعتقدوا صحته مع عدم المخالف»[(١)].

ولعل هذا التضاد الذي ذكره السيوطي يدخل ضمن الطباق المجازي أو المعنوي الخفي[(٢)]، فيكون التضاد بين القلب واللسان، فالعلم يستلزم الاعتقاد بالقلب، والقول يكون باللسان.

٢- قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٤٨]

اختلف المفسرون في مرجعية الضمير في (منها) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا﴾، أيهما يرجع للنفس الأولى؟ وأيهما يرجع للنفس الثانية؟ وقد نقل السيوطي بعض أقوال المفسرين في هذا الموضوع، واختلافهم في مرجعية الضمائر، أما هو فقد اختار أن يرجع الضمير في قوله: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا﴾ للنفس الأولى، وفي قوله: ﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا﴾، للنفس الثانية، وعدَّه وجهًا حسنًا، وذكر أنه على هذا القول يكون في الآية محسِّن من المحسّنات البديعية، وهو أسلوب اللفّ والنشر المرتب[(٣)].

يقول السيوطي: «قلت: ولو جعل الضمير في قوله هنا: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾ للنفس الأولى الجازية، وفي قوله: ﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ للنفس الثانية المجزي عنها، لكان وجهًا حسنًا، ويكون فيه لف ونشر مرتب»[(٤)].

(١) تفسير ابن عرفة، ابن عرفة (١/ ٢١٠-٢١١).
(٢) الطباق المعنوي: «هو الجمع بين المتضادّين، وقد يكون ظاهرًا، وقد يكون خفيًا». الإيضاح، القزويني (٢٥٥-٢٥٧).
(٣) اللف والنشر: «هو: ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين، ثقة بأن السامع يردّه إليه. والنشر المرتب: هو ما جاء على نفس ترتيب اللفّ». الإيضاح، للقزويني (٢٦٨).
(٤) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٢٤٨).

وإذا استعرضنا أقوال المفسرين في مرجعية الضمير في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ في الموضعين، لوجدنا بعضهم يرجعه للنفس الأولى، وبعضهم للثانية، وبعضهم يجوّز الأمرين.

فمن المفسرين الذين اختاروا رجوع الضمير الأول للنفس الأولى، والضمير الثاني للنفس الثانية، الكواشي (٦٨٠هـ)، فقد نقل الألوسي (١٢٧٠هـ) في تفسيره (روح المعاني) أن الكواشي اختار جعل الضمير الأول للنفس الأولى، والضمير الثاني للنفس الثانية، على طريقة اللف والنشر لما فيه من إجراء الجملتين على المعنى الظاهر منهما[١]. فيكون الكواشي قد سبق السيوطي في جعل هذه الآية من أسلوب اللف والنشر.

ومن المفسرين من يرجع الضمير في قوله: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا ﴾ إلى النفس الثانية العاصية، كالزمخشري (٥٣٨هـ)[٢]، والرازي (٦٠٦هـ)[٣]، والبيضاوي (٦٨٥هـ)[٤]، والنيسابوري (٨٥٠هـ)[٥]، لكنهم جوزوا أن يرجع للنفس الأولى.

أما أبو حيان (٧٤٥هـ) فيرى بأن الضمير في ﴿مِنْهَا﴾ يجوز أن يعود على ﴿نفس﴾ المتأخرة؛ لأنها أقرب مذكور، ويجوز أن يعود الضمير على ﴿نفس﴾ الأولى، لكنه رجّح عوده إلى النفس الأولى، لأنها هي المحدَّث عنها في قوله: ﴿ لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾، والنفس الثانية هي مذكورة على سبيل الفضلة لا العمدة[٦].

وإذا أجرينا اللف والنشر في هذه الآية، فيكون من اللف المفصَّل والنشر المرتَّب، فموضع اللف المفصّل جاء في قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾، فكلمة ﴿نفس﴾ وردت في هذه الآية مرتين، وفي كل مرة تختلف عن الأخرى، ثم بيّن الله ﷻ ما يقابل كل نفس بطريق النشر، فقال عن النفس الأولى: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ وقال عن الثانية: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾.

(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي (١/ ٢٥٣).
(٢) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري (١/ ١٣٧).
(٣) ينظر: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، الرازي (٣/ ٤٩٥).
(٤) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (١/ ٧٨).
(٥) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري (١/ ٢٨٠).
(٦) ينظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان (١/ ٣٠٨).

٣- قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة:٧٤]

في معرض كلام السيوطي عن هذه الآية نقل كلام المفسرين عن نوع (أو) في قوله تعالى: ﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾، ولم يرجح قولًا على آخر، ثم نقل كلام أبي حيان، وعلّق عليه، وكأنّه استحسنه، واختار جعل هذه الآية من شواهد اللفّ والنشر.

يقول السيوطي: « قيل: (أو) للشك، وهو محال على الله تعالى، وأُجيب بأنها بمعنى الواو، أو للإضراب، أو لتخيير السامع، أو للإيهام عليه، أو للشك بالنسبة إليه، والمعنى: أن من عرف حالهم شبَّه قلوبهم بالحجارة، أو بما هو أشد منها قسوة، واختار أبو حيان أنها للتنويع، وكأن قلوبهم على قسمين: قلوب كالحجارة قسوة، وقلوب أشد قسوة منها، فأجمل ذلك، في قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، ثم فصَّل ونوَّع إلى مشبه بالحجارة، وإلى أشد منها»[(١)]، ثم علَّق السيوطي بعد نقله لكلام أبي حيان بقوله: « فهو لف ونشر مجمل، على حدّ قوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾»[(٢)].

فالسيوطي نقل معاني (أو)، وبين استحسانه لرأي أبي حيان، واختياره بأن تكون للتنويع، ثم لمح من كلام أبي حيان محسّنًا بديعيًا، فذكره وبين نوعه، وأنه من اللف المجمل والنشر المفصل.

فاللف المجمل في هذه الآية في قوله: ﴿قُلُوبُكُمْ﴾، ثم فصل النشر بعده، فقال: ﴿ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ ﴾، أي قلوب كالحجارة، ثم قال: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، أي وقلوب أشد قسوة من الحجارة، فكأن القلوب على قسمين: قسمٌ قلوبهم قاسية كالحجارة، وقسمٌ قلوبهم أشد قسوة من الحجارة.

(١) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٢٧٤).
(٢) المرجع السابق (١/ ٢٧٤).

٤- **قال تعالى:** ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٨٠]

في تفسير السيوطي لهذه الآية عرّج على الفرق بين قوله تعالى هنا: ﴿مَّعۡدُودَةٗ﴾ وفي سورة آل عمران ﴿مَّعۡدُودَٰتٖ﴾، ونقل كلامًا لبعض العلماء والمفسرين، وعلّق عليه، يقول: «﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةٗ﴾، وفي آل عمران: ﴿مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ استيفاء لاستعمال الجمعين، كذا في دُرَّة التنزيل، قال: ويجوز أن يكون ﴿مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ جمع ﴿مَّعۡدُودَةٗ﴾. قلت: ظهر لي في ذلك نكتة، وهو أن الرواية عن ابن عباس وغيره، اختلفت في عدة الأيام، ففي رواية أنهم قالوا: سبعة أيام، وفي رواية أربعين، وطريق الجمع، أن فريقًا من اليهود قالوا بالأول، وفريقًا آخر قالوا بالثاني، فلعل ذكر ﴿مَّعۡدُودَةٗ﴾ إشارة إلى قول من قال سبعة، و﴿مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ الذي هو جمع ﴿مَّعۡدُودَةٗ﴾ إشارة إلى قول من قال أربعين، أو ﴿مَّعۡدُودَةٗ﴾ الذي هو للكثرة، للأربعين، و﴿مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ الذي للقلة، للسبعة، والله أعلم بمراده، ثم رأيت ابن جماعة سبقني إلى ذلك»[(١)].

وإذا استعرضنا توجيه المفسرين لهاتين الآيتين، والفرق بينهما، نجد أن أغلبهم غلّب الجانب النحوي، وجعلوه سببًا في الاختلاف بين الكلمتين، فالإسكافي (٤٢٠هـ) يرى أن الفرق في الآيتين بين الإفراد والجمع إشارة إلى الجمع بين الأصل والفرع[(٢)]، ووافقه كل من الكرماني (٥٠٥هـ)[(٣)]، والرازي (٦٠٦هـ)[(٤)]، وابن الزبير الغرناطي (٧٠٨هـ)، لكن الغرناطي لم يتوقف عند السبب النحوي، بل أضاف سببًا آخر، فيه تأمّل وتدبّر، فآية البقرة بُدئت بقوله: ﴿وَقَالُواْ﴾، فهي مبنية على الإيجاز، أما آية آل عمران فجاء أولها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ﴾، ففيها زيادة عن آية البقرة، فهي مبنية على الإطالة والإسهاب، يقول: « وإذ تبين ما ذكرناه، وأنه الجاري الكثير مع ما وقع في آية البقرة من الإيجاز، وفى الأخرى من الإطالة، ألا ترى قوله

(١) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٢٧٩).
(٢) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل، الإسكافي (١/ ٢٦٠-٢٦٥).
(٣) أسرار التكرار في القرآن، المسمى (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان)، الكرماني (ص٧٦).
(٤) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي (٣/ ٥٦٧).

تعالى في آية آل عمران: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾، وفي البقرة: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾، وإخباره تعالى باغترارهم بقوله: ﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، وهذا بسط لحالهم الحامل على سوء مرتكبهم، ولم يقع في سورة البقرة تعرض لشيء من ذلك، بل أوجز القول، ولم يذكر سببه، فناسب الإفراد الإيجاز، وناسب الجمع الإسهاب، ولو جمع في سورة البقرة، وأفرد في سورة آل عمران، أو أفرد فيهما، أو جمع فيهما، لما ناسب، فورد كل على ما يناسب ويجب» (١).

أما ابن جماعة (٧٣٣هـ) الذي ذكره السيوطي في تفسيره لهذه الآية، وأنه قد سبقه لما وصل له من توجيه، فيقول: « قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾، وفي آل عمران: ﴿مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾، ومعدودة: جمع كثرة، ومعدودات: جمع قلة؟ جوابه: أن قائلي ذلك من اليهود فرقتان: إحداهما قالت: إنما نعذب بالنار سبعة أيام، وهي عدد أيام الدنيا، وقالت فرقة: إنما نعذب أربعين يومًا، وهي أيام عبادتهم العجل، فآية البقرة يحتمل قصد الفرقة الثانية، وآية آل عمران يحتمل قصد الفرقة الأولى» (٢).

أما أبو حيان (٧٤٥هـ) فلم يذكر فرقًا بين الكلمتين، بل ذكر أنهما فصيحتان، يقول: «وتقدم تفسير هذه الأيام المعدودات، في سورة البقرة، فأغنى عن إعادته هنا، إلا أنه جاء هناك ﴿مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ وهنا: ﴿مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ وهما طريقان فصيحان، تقول: جبال شامخة، وجبال شامخات، فتجعل صفة جمع التكسير للمذكر الذي لا يعقل تارة لصفة الواحدة المؤنثة، وتارة لصفة المؤنثات، فكما تقول: نساء قائمات، كذلك تقول: جبال راسيات، وذلك مقيس مطرد فيه» (٣).

فالنكتة التي ذكرها السيوطي في تعليقه وتوجيهه للاختلاف بين آية البقرة، وآية آل عمران، تفرَّد بها ابن جماعة، وتبعه السيوطي بعد ذلك، وهي مبنية على الاختلاف في عدة الأيام، هل هي سبعة؟، أم أربعون؟، وفي رأيي أن ما ذكره السيوطي من نكتة، هي أقرب للجمع بين الروايات، والتوفيق بينها، وليس توجيهًا بلاغيًا، أو تفسيرًا بيانيًا للاختلاف بين الكلمتين في الإفراد والجمع.

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، الغرناطي (١/ ٤٦-٤٧).
(٢) كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ابن جماعة (ص١٠٣).
(٣) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان (٣/ ٨٣).

٥- قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]

ذكر السيوطي أن في هذه الآية ملمحًا بلاغيًا، وهو اللف والنشر، حيث جاء اللف مجملًا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾، فواو الجماعة يدل على فريقين مختلفين من أهل الكتاب، هما: اليهود، والنصارى، ومعنى هذه الآية: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا، فجاء باللف مجملًا متعددًا، ثم ذكر ما يخص كل فريق بالتفصيل من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرد كل قول إلى صاحبه.

يقول السيوطي: « فيه لف ونشر مجمل، أي وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، والمسوِّغ للإجمال في اللف، ثبوت العناد بين الفريقين، فلا يمكن أن يقول أحد الفريقين بدخول الآخر الجنة، فوثق العقل في أنه يرُدّ كل قول إلى فريقه، لأمن اللبس، وقصد الإيجاز، وقائل ذلك يهود المدينة، ونصارى نجران» (١).

فحرف العطف (أو) في هذه الآية يدل على تقسيم القولين، ليرجع السامع كل قول إلى قائله، فقد ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العداوة التي بين اليهود والنصارى بعد هذه الآية، فلا يمكن أن يتمنى كل فريق الخير للآخر، يقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾ [البقرة: ١١٣]، فهذا دليل على أن كل فريق يعادي الآخر، ويقصر دخول الجنة على طائفته.

وفي شاهد اللف والنشر إيجاز، فالقول صدر من الجميع، باعتبار أن كل فريق منهما قال ذلك، فالمعنى قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان منهم، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان منهم، فجمع القرآن بين قوليهما على طريقة الإيجاز، بجمع ما اشتركا فيه، وهو نفي دخول الجنة لغير اليهود والنصارى.

وقد سبق السيوطي لهذا الملمح البلاغي الزمخشري (٥٣٨هـ)، وابن عطية (٥٤٢هـ)، حيث ذكرا أن الضمير في ﴿وَقَالُواْ﴾ عائد على أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، فلفّهم وجمعهم

(١) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٣٠٧).

في القول، ثقة بأن السامع يرد كل قول إلى قائله، على طريقة اللف والإيجاز [١].

٦- قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤]

ذكر السيوطي أن في هذه الآية فنًّا من فنون البديع، وهو المراجعة[٢]، ثم عرف هذا الفن بقوله: «وفي الآية من أنواع البديع: المراجعة، وهي أن يحكي المتكلم مراجعة في القول، جرت بينه وبين محاور له، بأوجز عبارة، وأعدل سبك، وأعذب ألفاظ»[٣].

ولقد درس ابن أبي الأصبع (٦٥٤هـ) هذه الآية في باب المراجعة من كتابه (بديع القرآن)، وشرحها شرحًا وافيًا، وبين مكامن البلاغة فيها، فهي آية لم تتجاوز لفظاتها ثلاث عشرة لفظة، وقد جمعت معاني الكلام من الخبر والاستخبار، والأمر والنهي، والوعد والوعيد[٤].

والسيوطي عند تفسيره لهذه الآية نقل كلام ابن أبي الأصبع عن فن المراجعة في هذه الآية، وعلق عليه بقوله: « قال ابن أبي الأصبع: جمعت هذه الآية ثلاث مراجعات، فيها معاني الكلام، من الخبر، والاستخبار، والأمر والنهي، والوعد والوعيد بالمنطوق والمفهوم. قلت: أحسن من هذا أن يقال: جمعت الخبر، والطلب، والإثبات والنفي، والتأكيد والحذف، والبشارة والنذارة، والوعد والوعيد»[٥].

وليس في تعليق السيوطي زيادة على كلام ابن أبي الأصبع، لأن كلمة (الخبر) في قول ابن أبي الإصبع تشمل: الإثبات والنفي، والتأكيد والحذف؛ لأنها أساليب مصاحبة للخبر، فقد يكون مثبتًا، وقد يكون منفيًا، وقد يكون مؤكدًا أو غير مؤكد، وقد يكون فيه حذف، أو لا يحذف منه شيء، كما أن كلمتي (البشارة والنذارة) عند السيوطي، هي في معنى (الوعد والوعيد) عند ابن أبي الإصبع، وبقي للسيوطي الإيجاز بكلمة (الطلب) لأنها تشمل

(١) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري (١/ ١٧٧) ، المحرر الوجيز، ابن عطية (١/ ١٩٨).
(٢) المراجعة هي: « أن يحكي المتكلم مراجعة في القول، جرت بينه وبين محاور له في الحديث، أو بين اثنين غيره، بأوجز عبارة، وأبلغ إشارة، وأرشق محاورة، وأعدل سبك وأسهله، وأعذب ألفاظ وأجزلها ». بديع القرآن، ابن أبي الأصبع (ص٣٠٠).
(٣) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٣٢١).
(٤) ينظر: بديع القرآن، ابن أبي الأصبع (٣٠١-٣٠٢).
(٥) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٣٢١).

(الاستخبار، والأمر، والنهي) في قول ابن أبي الإصبع، وزاد ابن أبي الإصبع بقوله: (المنطوق والمفهوم)، وليس في كلام السيوطي ما يدل عليه.

٧- قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥]

في تفسير هذه الآية توقف السيوطي عند القراءات المتواترة في قوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟﴾، وربط بها معنى قوله: ﴿مُصَلًّى﴾، وذكر المعاني المشهورة لها، ثم جمع بين قراءات الفعل (اتخذوا)، ومعنى كلمة ﴿مُصَلًّى﴾، يقول: «﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، قُرئ بفتح الخاء على الخبر، وهو متصل بما قبله وما بعده، وبكسرها على الأمر، فقيل على تقدير: وقلنا اتخذوا، ... و﴿مُصَلًّى﴾ قيل: موضع صلاة، وقيل: موضع دعاء، قلت: ولا يبعد إرادة الأمرين، أو اختصاص الأول بقراءة الكسر كما بينه سبب النزول، والثاني بقراءة الفتح»[(١)].

وإذا رجعنا لتفسير العلماء لهذه الآية نجد أنهم ذكروا اختلاف القراء في قراءة الفعل (اتخذوا)، واختلاف تفسير كلمة (مصلى) فقط، فالجصاص (٣٧٠هـ) في (أحكام القرآن) تطرق لمعنى كلمة (مصلى)، وذكر لها ثلاثة أقوال، واختار منها أن معنى (مصلى) أي: جعله مكانًا يُصلَّى عنده، لأن ظاهر اللفظ يقتضيه، يقول: «وقد اختلف في المعنى المراد بقوله: ﴿مُصَلًّى﴾، فقال فيه مجاهد: مدعى، وجعله من الصلاة؛ إذ هي الدعاء، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقال الحسن: أراد به قبلة، وقال قتادة والسُّدِّيّ: أُمروا أن يصلُّوا عنده، وهذا هو الذي يقتضيه ظاهر اللفظ؛ لأن لفظ الصلاة إذا أُطلق تعقل منه الصلاة المفعولة بركوع وسجود، ألا ترى أن مصلى المصر هو الموضع الذي يُصلى فيه صلاة العيد؟ وقال النبي عليه السلام لأسامة بن زيد: (المصلى أمامك) يعني به موضع الصلاة المفعولة، وقد دل عليه أيضا فعل النبي ﷺ بعد تلاوته الآية»[(٢)].

(١) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٣٢٢-٣٢٣).
(٢) أحكام القرآن، الجصاص (١/ ٩١).

أما البغوي (٥١٦هـ) فذكر القراءات في (اتخذوا)، وبين المعنى الصحيح لكلمة (مصلى)، يقول: « قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا﴾ قرأ نافع وابن عامر بفتح الخاء، على الخبر، وقرأ الباقون بكسر الخاء، على الأمر،... والصحيح: أن مقام إبراهيم هو الحجر الذي في المسجد، يصلي إليه الأئمة،...قال قتادة ومقاتل والسُّدّي: أُمروا بالصلاة عند مقام إبراهيم، ولم يؤمروا بمسحه وتقبيله»[(١)].

أما أبو حيان (٧٤٥هـ) فذكر اختلاف العلماء في قراءة (اتخذوا) على قولين: بكسر الخاء، وفتحها، ثم ذكر اختلافهم في المخاطبين في قراءة الكسر، يقول: «﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، والجمهور: ﴿وَٱتَّخِذُوا﴾ بكسر الخاء على الأمر، وقرأ نافع، وابن عامر: بفتحها، جعلوه فعلًا ماضيًا، فأما قراءة: ﴿وَٱتَّخِذُوا﴾ على الأمر، فاختلف مَن المواجَه به، فقيل: إبراهيم وذريته، أي وقال الله لإبراهيم وذرّيته: اتخذوا، وقيل: النبي ﷺ وأمّته، أي: وقلنا اتخذوا، ويؤيّده ما رُوي عن عمر أنه قال: وافقت ربي في ثلاث، فذكر منها وقلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، ورُوي عن النبي ﷺ أنه أخذ بيد عمر فقال: هذا مقام إبراهيم، فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى؟ فقال: لم أؤمر بذلك، فلم تغب الشمس حتى نزلت، وعلى هذين القولين يكون (اتخذوا) معمولا لقول محذوف»[(٢)]. وكأن أبا حيان يؤيد أن المخاطبين بهذه الآية هم النبي ﷺ وأمته، بدليل ذكره قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع النبي ﷺ.

والسيوطي لم يخرج عن القراءات المتواترة في ﴿وَٱتَّخِذُوا﴾ التي ذكرها مَن قبله مِن العلماء، ولم يأتِ بجديد في المقصود بالمصلى، بل ذكر أقوال المفسرين فيهما، ثم علّق تعليقًا جمع فيه بين القراءات الواردة في (اتخذوا)، والمعاني التي فسّرت بها لفظة (مصلى)، فمن قال بأن المقصود بالمصلى هو موضع الدعاء، فهذا التفسير تناسبه قراءة الفتح، ومن قال بأن المقصود هو موضع الصلاة، فهذا يناسبه قراءة الكسر.

(١) معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي (١/ ١٦٢-١٦٣).
(٢) البحر المحيط، أبو حيان (١/ ٦٠٩).

٨- قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [البقرة:١٣٥]

ذكر السيوطي أن في هذه الآية محسِّن اللف والنشر، وهو لف مجمل، ونشر مفصل، يقول: «﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ فيه لف ونشر مجمل، على حد ما تقدم في ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١] »[(١)].

وجاء اللف المجمل في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ فإن الضمير (واو الجماعة) يشتمل على فريقين مختلفين من أهل الكتاب، هما: اليهود والنصارى، والمعنى: قالت اليهود: كونوا يهودًا تهتدوا، وقالت النصارى: كونوا نصارى تهتدوا، ففي الآية لف ونشر مجمل، وحرف العطف (أو) في هذه الآية جاء للتفصيل والتوزيع، والمعنى: وقالت اليهود: كونوا هودًا، وقالت النصارى: كونوا نصارى، فمن خلال معرفة معنى الحرف (أو) تبين أن في الآية لفًا ونشرًا، مما كان له أبلغ الأثر في كشف معنى هذه الآية.

يقول الرازي (ت٦٠٦هـ): «﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ لا يجوز أن يكون المراد به التخيير، إذ المعلوم من حال اليهود أنها لا تجوز اختيار النصرانية على اليهودية، بل تزعم أنه كفر، والمعلوم من حال النصارى أيضًا ذلك، بل المراد أن اليهود تدعو إلى اليهودية، والنصارى إلى النصرانية، فكل فريق يدعو إلى دينه، ويزعم أنه الهدي »[(٢)].

ولم أعثر على عالم قبل السيوطي ذكر أن في الآية لفًا ونشرًا، ولعل ذكرهم لهذا الملمح في آية سابقة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، كان كافيًا لعدم تكراره، فاكتفوا بذكره في آية واحدة، وهذا ينطبق على مثيلاتها.

(١) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٣٢٩).
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي (٤/ ٧٠).

المبحث الثاني:

انفرادات السيوطي وتعليقاته البلاغية من الجزء الثاني حتى نهاية السورة

١- قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]

الحديث في هذه الآية عن تشبيه هيئة بهيئة، وصورة بصورة، حيث شبَّه حال المشركين في إعراضهم عن الإسلام، بحال الراعي الذي ينعق بالغنم، وقد ذكر السيوطي هذا التشبيه في تفسيره، ونقل كلام الكرماني عنه، ثم علق عليه، واستخرج منه فنًا بديعيًا لم يذكره أحد قبله.

يقول: «﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تشبيه لمن دُعي إلى اتباع ما أنزل الله، فأعرض وتولّى، ولم يجب، وأصرَّ على ضلاله، ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ﴾. الكرماني: (التقدير: مثل الذين كفروا معك يا محمد، كمثل الناعق مع الغنم، فحذف من كل طرف، ما يدل عليه الطرف الآخر، وهو أبلغ ما يكون من الكلام). قلت: وهو المسمى في البديع بالاحتباك، وفيه تشبيه داعي الكفر بداعي البهائم، والكفار بالبهائم، وهو الذي اختاره في الآية سيبويه، وابن طاهر، وابن خروف، والشلوبين، والنعيق: دعاء الراعي وتصويته بالغنم، ووقع التشبيه براعي الغنم، لأنها من أبلد الحيوان»[(١)]، ولعل الفائدة من هذا التشبيه هو تصوير المشبَّه بصورة قبيحة، فتشبيه الكافرين بالبهائم والدوابّ، إخراج لهم من دائرة البشرية، وهذا فيه تقبيح لهم، وتنفير للناس من حالهم.

والسيوطي عندما درس هذه الآية، ذكر أن فيها ملمَحَين بلاغيَّين، الأول: أسلوب الاحتباك[(٢)]، والثاني التشبيه، وقد تطرَّق المفسرون والعلماء قبله للتشبيه، وانفرد هو بذكر الاحتباك. فتقدير الآية: ومثل الأنبياء والكفار، كمثل الذي ينعِق، والذي يُنعَق به، فحذف من الأول الأنبياء لدلالة ﴿ٱلَّذِى يَنۡعِقُ﴾ عليه، ومن الثاني الذي يُنعق به، لدلالة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عليه[(٣)].

(١) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٣٧١-٣٧٢).

(٢) الاحتباك هو: «أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيُحذف من واحد منهما مقابله، لدلالة الآخر عليه». وقد سماه الزركشي (الحذف المقابلي). ينظر: البرهان، (ص ٧٠٢). وسماه السيوطي (الاحتباك) وعرفه بقوله: « وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول ». ينظر: الإتقان ، السيوطي (٣/ ٢٠٤).

(٣) ينظر: المرجع السابق (٣/ ٢٠٤).

٢- قال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٤]

تكررت كلمة (خير) في هذه الآية ثلاث مرات، وقد اختلف المفسرون في تفسيرها في المواضع الثلاث، فابن عطية (٥٤٢هـ) يرى بأن (خير) الثاني صفة تفضيل، وكذلك الثالث، والأول نزل منزلة مالًا أو نفعًا[(١)].

والإمام القرطبي (٦٧١هـ) يرى كذلك بأن (خير) الثاني والثالث صفة تفضيل[(٢)]، أما أبو حيان (٧٤٥هـ) فيرى أن (خير) الأول مصدر، والثاني أفعل تفضيل[(٣)].

أما السيوطي فنقل كلام الشيخ سعد الدين التفتازاني (٧٩١هـ) في حاشيته على الكشاف، عن لفظة (خير)، ثم ذكر رأيه في الموضوع، وتعليقه عليه، يقول: «﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ﴾. الشيخ سعد الدين: ("خير" الأول مصدر خِرت يا رجل، فأنت خائر، والثاني، اسم تفضيل، بمعنى أزيد خيرًا) انتهى. ففيه جناس تام، وهو عزيز في القرآن، وعندي أن "خير" الأول مصدر، والثاني الذي لا تفضيل فيه، كما في: حياتي خير لكم، وموتي خير لكم، والثالث أفعل تفضيل، فاستعملت هذه اللفظة في الآية ثلاث مرات، لثلاثة معان»[(٤)].

فالسيوطي ذكر رأيين له في هذه الآية، الأول: أن هناك جناسًا تامًا[(٥)] بين (خير) الأول، والثاني، وأن هذا الجناس عزيز ونادر في القرآن، والرأي الثاني: أن (خير) الأول مصدر، والثاني الذي لا تفضيل فيه، والثالث أفعل تفضيل.

وقد كتب الأستاذ محمد أحمد الغمراوي مقالة في مجلة الرسالة، يردّ فيها على ما ذكره السيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) بأن ليس في القرآن الكريم من الجناس التام إلا

(١) ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية (١/ ٢٥٣).
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ٢٩٠).
(٣) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان (٢/ ١٩٢).
(٤) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٣٩٦).
(٥) الجناس هو: «أن يتفق اللفظان في النطق، ويختلفا في المعنى، والجناس التام: أن يتفق اللفظان في نوع الحروف وشكلها و عددها وترتيبها». ينظر: الإيضاح، القزويني(ص٢٨٨-٢٩٣).

مثالان: قوله تعالى من سورة الروم: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [٥٥]، ومن سورة النور: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٣ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [٤٣-٤٤]، ويرى الغمراوي أن سبب قلة أمثلة الجناس التام في القرآن هو اشتراط بعض العلماء في الجناس التام: ألا يكون أحد المعنيَين مجازيًّا، وهذا الشرط هو الذي قلَّل أمثلة الجناس في القرآن الكريم، ويرى بأن هذا الاشتراط ليس له محل ولا حكمة، ما دام موضع الحسن هو اتفاق اللفظ مع اختلاف المعنى؛ فاللفتة الذهنية هي سواء أكان المعنيان حقيقيَّين كلاهما، أم كان أحدهما حقيقيًّا والآخر مجازيًّا؟ ثم إنه حتى مع هذا الشرط فإن في القرآن الكريم من الجناس التام أمثلة فوق الذي ذكره العلماء، ثم بدأ في مقالته يُعدِّد أمثلة للجناس التام بنوعيه المتماثل والمستوفي[١].

٣- قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥]

من القضايا البلاغية التي تطرق لها السيوطي في هذه الآية العظيمة، أسلوب اللفّ والنشر، فقد ذكر موضعين من مواضع اللفّ والنشر.

- الموضع الأول في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ﴾، وتحليله: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في الآية جملتين، الأولى: قوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ والثانية: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾، ثم ذكر ما يقابل كل جملة، فقال: ﴿مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾، وهو راجع إلى قوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، ثم قال: ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾، وهو راجع إلى قوله: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾، على طريقة أسلوب اللف والنشر المرتب.

- الموضع الثاني في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا

(١) الجناس التام في القرآن، الغمراوي، محمد أحمد. مجلة الرسالة، العدد ١٠٢٢ تاريخ ٢/ ٢/ ١٩٥٣م.

يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾. وتحليله: أنه سبحانه ذكر في هذه الآية جملًا متعدّدة، هي قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾، وقوله: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾، ثم ذكر ما يقابل كل جملة من هذه الجمل الثلاث، فقال سبحانه: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾، وهذا يقابل قوله في الجملة الأولى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾، أي إكمال عدة الشهر بالصوم، ثم قال: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾، وهو يقابل الجملة الثانية وهي قوله: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾، أي لتكبروا الله على ما هداكم من كيفية قضاء الصوم للمريض والمسافر، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، وهو يقابل العبارة الثالثة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾، أي تشكرون الله على أن أراد بكم اليسر ولم يرد بكم العسر.

يقول السيوطي عن مواضع اللف في هذه الآية: «﴿مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ أي من جملة هدى الله وبيناته، وفيه لفٌّ ونشر، فالهدى راجع إلى قوله: (هدى) و(الفرقان) إلى قوله: (وبينات)... ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ شرع جملة ما ذكر من أمر الشاهد بالصوم، ومن أمر المرخَّص له بمراعاة عدَّة ما أفطر فيه، ومن الترخيص في إباحة الفطر، فقوله: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ﴾ علّة الأمر بمراعاة العدّة، ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ﴾ علّة الأمر بما علّمكم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر، ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ علّة التيسير والترخيص، وهذا نوع من اللفّ لطيف المسلك»[1].

ولم يذكر أحد من المفسرين مواضع اللفّ هذه، سوى الزمخشري (٥٣٨هـ) في تفسيره (الكشاف)، وقد تطرق للموضع الثاني، وذكر بأنه نوع من اللف لطيف المسلك، يقول: «﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ شرع ذلك -يعني جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر، وأمر المرخَّص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه، ومن الترخيص في إباحة الفطر-، فقوله: ﴿لتكملوا﴾ علّة الأمر بمراعاة العدة،

(١) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٣٩٧-٣٩٨).

﴿وَلِتُكَبِّرُوا﴾ علّة ما علم من كيفية القضاء، والخروج عن عهدة الفطر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علة الترخيص والتيسير، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدى إلى تبينه إلا النقّاب المحدث من علماء البيان»[(١)].

وقد ذكر الفخر الرازي (٦٠٦هـ) كلامًا مشابهًا لكلام الزمخشري، لكن دون أن يذكر نوعه، وأنه من أسلوب اللف، يقول: «﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فعل جملة لما ذكر وهو الأمر بصوم العدة، وتعليم كيفية القضاء، والرخصة في إباحة الفطر، وذلك لأنه تعالى لما ذكر هذه الأمور الثلاثة ذكر عقيبها ألفاظًا ثلاثة، فقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ علة للأمر بمراعاة العدة،﴿وَلِتُكَبِّرُوا﴾ علة ما علمتم من كيفية القضاء، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علة الترخص والتسهيل»[(٢)].

وممن تطرق لهذا الفن، نظام الدين النيسابوري (٨٥٠هـ) في تفسيره (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، وقد نقله من كلام الزمخشري في الكشاف[(٣)].

٤- قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧]

حلّل السيوطي هذه الآية، وذكر ما فيها من بلاغة وإعجاز، وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ توقّف عنده، وانفرد بذكر ملمَحين بديعيَّين، لم يتطرق لهما أحد من العلماء قبله –حسب اطلاعي–، وهما: محسِّن اللفّ والنشر المرتّب المضمر أحد جُزأيه، ومحسِّن اللف المفصّل، والنشر المجمل.

(١) الكشاف، الزمخشري (١/ ٢٢٨).
(٢) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، الرازي (٥/ ٢٥٨).
(٣) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري (١/ ٥٠٤).

وبيان ذلك، أن قوله تعالى: ﴿ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ كلام متعدّد، ثم ذكر بعده ما يقابل هذا المتعدّد، فقال تعالى: ﴿ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ وهو يقابل الخيط الأبيض، وأضمر ما يُقابل الكلمة الثانية وهي (الخيط الأسود) ، وتقديره: من الليل، أي: حتى يتبين لكم الخيط الأبيض (الفجر) من الخيط الأسود (الليل)، وجاء هذا الكلام على طريقة اللف، والنشر المرتب المضمر أحد جزأيه، وعلى رأي السيوطي هو نوع جديد من أنواع النشر.

والرأي الآخر، هو: أنه يمكن أن يكون اللف هنا مفصلًا (الخيط الأبيض) و(الخيط الأسود)، والنشر بعد ذلك جاء مجملًا (من الفجر) فقوله: (من الفجر) مجمل للفجر الصادق الثاني الذي يقابل (الخيط الأبيض)، ومجمل للفجر الكاذب الأول الذي يقابل (الخيط الأسود)، على طريقة اللف المفصل والنشر المجمل، وهو عكس اللف المجمل، وعلى رأي السيوطي هو نوع غريب، لم ينبه عليه أحد من قبل.

يقول السيوطي: « وقوله: (من الفجر) بيان للخيط الأبيض، واكتفى به عن بيان الخيط الأسود، لأن بيان أحدهما بيان للثاني، وهذا من باب التشبيه،... فنزل (من الفجر) بيانًا لما خفي عليهم، وخرج به عن حد الاستعارة إلى التشبيه البليغ، وبهذا التقدير صار تجريدًا، كأنه جرّد من الفجر خيطًا أبيض، وهو كما أنك قلت: رأيت من زيد رجلًا كريمًا، كأنك جرّدت منه رجلًا كريمًا، وهو هو، فإذا قلت: رأيت منه أسدًا، كان تجريدًا وتشبيهًا معًا، والآية كذلك، مع ما فيها من الاكتفاء واللفّ والنشر المرتّب المضمر أحد جزأيه،... قلت: وعلى هذا، فيمكن أن يجعل (من الفجر) بيانًا للخيط الأبيض والخيط الأسود معًا، بناء على استعمال المشترك في معنيَيه، ويكون المقصود به دفع وهم من ظن أن المراد حقيقة الخيطَين، فأبان أن المراد بهما الفجر بقسميه، من صادق وكاذب، وعلى هذا فلا خلاف في الآية ولا اكتفاء، ويكون من باب اللف والنشر المجمل، لكن الإجمال هنا في النشر لا في اللف، على عكس ما تقدم في ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ وهو نوع غريب، لم أرَ من نبَّه عليه»[1].

وقد ذكر الرازي (٦٠٦هـ) سبب الاكتفاء ببيان الخيط الأبيض، دون الخيط الأسود، وأن

(١) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٤٠٣).

بيان أحدهما بيان للآخر، يقول: « وقوله: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ بيان للخيط الأبيض، واكتفى به عن بيان الخيط الأسود؛ لأن بيان أحدهما بيان للثاني»[(١)].

وقد علل أبو حيان (٧٤٥هـ) كذلك مجيء قوله: (من الفجر)، دون ذكر (من الليل) في هذه الآية، فقوله تعالى: (من الفجر) جاء بيانًا للخيط الأبيض، وتقدير (من الليل) بيان للخيط الأسود، لكن بيان الخيط الأسود حُذف؛ لأن الخيط الأسود، جاء فضلة فناسب حذف ما يتعلق به.

يقول أبو حيان: « وقيل: ويجوز أن يكون (من الفجر) حالًا من الضمير في الأبيض، فعلى هذا يتعلق بمحذوف، أي: كائنًا من الفجر، ومن أجاز أن تكون (مَن) للبيان أجاز ذلك هنا، فكأنه قيل: حتى يتبين لكم الخيط الأبيض الذي هو الفجر، من الخيط الأسود، واكتفى ببيان الخيط الأبيض عن بيان الخيط الأسود؛ لأن بيان أحديهما بيان للثاني، وكان الاكتفاء به أولى، لأن المقصود بالتبين، والمنوط بتبيينه: الحكم من إباحة المباشرة، والأكل، والشرب، ولقلق اللفظ لو صرح به، إذ كان: يكون حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر من الليل، فيكون من الفجر بيانًا للخيط الأبيض، ومن الليل بيانًا للخيط الأسود، ولكون: من الخيط الأسود، جاء فضلة فناسب حذف بيانه»[(٢)].

أما الرأي الآخر للسيوطي، الذي ذهب فيه إلى جواز أن يكون اللف في هذه الآية مفصلًا، والنشر مجملًا، فلم أجد من قال به، أو أشار إليه، سوى السيوطي نفسه، وهذا عكس الاصطلاح الذي استقر عليه البلاغيون في حد اللف والنشر.

٥- قال تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة:١٩٧]

نقل السيوطي في تفسيره لهذه الآية كلام العلماء حول المقصود من كلمة ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾، وهل الزاد المأمور به في الآية خاص في الدنيا، أو في الآخرة؟ ثم علّق بعد نقله لكلام العلماء،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي (١/ ٢٣١).
(٢) البحر المحيط، أبو حيان (٢/ ٢١٧-٢١٨).

وذكر أن في هذه الآية محسِّن اللف والنشر.

يقول السيوطي: « وقيل: هو أمر بالتزوّد في السفرَين معًا، وكأن التقدير: وتزوّدوا ما تنتفعون به لعاجل سفركم وآجله. قلت: وتتمته أن يقال: وأردفه بجملتين، أولاهما يتعلَّق بالدنيا، الثانية بالآخرة، ففيه لف ونشر للإجمال المطوي»[(١)].

وتحليل محسّن اللف والنشر: أن اللف جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾، وهو مجمل، أي تزوّدوا في سفركم في الدنيا، وتزودوا في سفركم للآخرة، ثم ذكر تعالى ما يخص كل سفر، فقال: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، أي ما يُتقى به سؤال الناس، وهذا على رأي بعض المفسرين، وهذا يخص السفر في الدنيا، ثم قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وهذا في شأن سفر الآخرة.

وقد نقل ابن عطية (٥٤٢هـ) في تفسيره سبب نزول هذه الآية، وأنها نزلت في قوم من العرب، كانوا يحجُّون بغير زاد، فأُمروا بالتزوّد، والاستعداد لسفرهم، وترك سؤال الناس، يقول: « وقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾، الآية، قال ابن عمر وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن زيد: نزلت الآية في طائفة من العرب، كانت تجيء إلى الحج بلا زاد، ويقول بعضهم: نحن المتوكّلون، ويقول بعضهم: كيف نحجّ بيت الله ولا يطعمنا، فكانوا يبقون عالةً على الناس، فنُهوا عن ذلك وأمروا بالتزود»[(٢)].

وللمفسرين في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قولان، ذكرهما الماوردي (٤٥٠هـ) في تفسيره، يقول: «وفي قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ تأويلان، أحدهما: تزوّدوا بالأعمال الصالحة ، فإن خير الزاد التقوى، والثاني: أنها نزلت في قوم من أهل اليمن ، كانوا يحجّون ولا يتزوّدون ، ويقولون: نحن المتوكلون ، فنزلت فيهم: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾، يعني من الطعام»[(٣)].

وقد نقل الرازي (٦٠٦هـ) في التفسير الكبير اعتراض القاضي[(٤)] على التأويل الثاني، فقال:

(١) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٤٢٩).
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (١/ ٢٧٣).
(٣) النكت والعيون، الماوردي (١/ ٢٦٠).
(٤) ينقل الرازي في تفسيره عن القاضي، والمقصود به القاضي عبد الجبار (٤١٥هـ).

«قال القاضي: وهذا بعيد لأن قوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ فكان تقديره: وتزودوا من التقوى، والتقوى في عرف الشرع والقرآن عبارة عن فعل الواجبات، وترك المحظورات، قال: فإن أردنا تصحيح هذا القول ففيه وجهان: أحدهما: أن القادر على أن يستصحب الزاد في السفر إذا لم يستصحبه عصى الله في ذلك، فعلى هذا الطريق صحَّ دخوله تحت الآية، والثاني: أن يكون في الكلام حذف، ويكون المراد: وتزوَّدوا لعاجل سفركم وللآجل فإن خير الزاد التقوى»[(١)].

وخلاصة المعنى أنه إذا كان المقصود بقوله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ الاستعداد ليوم القيامة، فالتزود مستعار للاستكثار من فعل الخير، استعدادًا لذلك اليوم، فقد شبِّه المتزوّد بالخيرات بالمسافر يُعِدُّ الزاد لسفره، بناء على إطلاق اسم السفر والرحيل على الموت. وإن كان قوله : ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ مستعملًا في معناه الحقيقي، وهو التزود بالطعام والزاد في سفر الحج، فلا استعارة حينئذ[(٢)]. واللف في الآية في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ أي في سفركم في الدنيا والآخرة ، فلا استعارة حينئذ في التزود في سفر الدنيا، بل الاستعارة في التزود لسفر الآخرة .

٦- قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٥]

نقل السيوطي عند تفسيره لهذه الآية كلام أبي حيان (٧٤٥هـ) حول معنى (خير)، ثم ذكر رأيه، فقال: «(قال: وفي الكلام حذف، تقديره: ولمن يعطون؟ فجاء الجواب ببيان المنفق والمصرف معًا، أو التقدير: يسألونك مصرف ماذا ينفقون، فطابق الجواب ببيانه)، قال: (وخير الأول أُريد به المال، والثاني الفضل المقابل للشر) . قلت: ففيه حينئذ الجناس التام، وهو عزيز في القرآن»[(٣)].

فالسيوطي يرى أن في هذه الآية محسّن الجناس التام، وقد ذكر في كتابه (الإتقان في علوم

(١) مفاتيح الغيب، الرازي (٥/ ٣٢١).
(٢) ينظر : التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢ / ٢٣٥- ٢٣٦).
(٣) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٤٥٠).

القرآن) بأن ليس في القرآن الكريم من الجناس التام إلا مثالان: قوله تعالى من سورة الروم: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [٥٥]، ومن سورة النور ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [٤٣-٤٤]، ثم ها هو يذكر في تفسيره مثالًا آخر غير المثالين السابقين، وقد ذكرت رد الأستاذ محمد أحمد الغمراوي على السيوطي في مسألة أمثلة الجناس التام في القرآن الكريم، وذلك في الآية (١٨٤) من سورة البقرة[(١)]، وأن سبب قلة أمثلة الجناس التام في القرآن هو اشتراط بعض العلماء في الجناس التام: ألا يكون أحد المعنيين مجازيًا، وهذا الشرط هو الذي قلَّل أمثلة الجناس في القرآن الكريم.

وقد ذكر الرازي (٦٠٦هـ) في تفسيره المراد من الخير في الآية، وأن المقصود به هو المال، واستشهد بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]، وذكر قولًا آخر، وهو أن يكون قوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ يتناول هذا الإنفاق سائر وجوه البر والطاعة، ثم رجَّح القول الثاني، وذكر بأنه أولى من القول الأول[(٢)].

٧- قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧]

توقف السيوطي في تفسيره لهذه الآية عند قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾، وذكر أن فيها النوع البديعي المسمى بالمزاوجة[(٣)]، وهو أن يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء، ثانيهما مرتب على الأول، وهنا زاوج في الشرط بين الردة والموت عليها،

(١) ينظر الآية رقم ٢ من هذا المبحث.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي (٦/ ٣٨٣).

(٣) المزاوجة هي: «أن يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء» وهو من المحسنات المعنوية. الإيضاح، القزويني(ص ٣٤٦).

مرتب عليها بالفاء، وفي الجواب بين إحباط العمل والخلود في النار، والثاني مرتب على الأول، كما لا يخفى، ثم قال: « وهذا النوع مثاله في القرآن عزيز جدًا»[١].

ثم ذكر السيوطي أن من رجّح أن مجرَّد الرِّدّة تحبط العمل، وإن لم تتصل بالموت، يرى بأن في الآية محسّن اللف والنشر، يقول: «ومن ذهب إلى أن الرِّدّة تحبط العمل، وإن لم تتصل بالموت، قال في الآية لف ونشر، لأن الحبوط عائد إلى الارتداد، والخلود عائد إلى الموت على الكفر»[٢].

وبيان شاهد اللف والنشر هنا كالآتي: في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ حيث لفَّ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ ثم نشره بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ وهذا حكم الردة، ثم قال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ وهذا حكم الموت على الكفر.

وسر مجيء لفظة (يرتدد) على صيغة المطاوعة؛ إشارة إلى أن رجوعهم عن الإسلام إن قُدِّر حصوله لا يكون ابتداء من المسلمين، ولكن يكون عن محاولة إثر محاولة من قبل المشركين[٣].

٨- قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة:٢٢١]

وقع الخلاف بين المفسرين في قوله تعالى: ﴿ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾، هل المقصود بالأمة المملوكة أو مطلق المرأة؟ فتشمل الحُرّة والمملوكة.

وقد ذهب الطبري (٣١٠هـ) في تفسيره إلى أن المقصود بالأمة: المملوكة، في مقابل الحُرّة

(١) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٤٥٣).
(٢) المرجع السابق (١/ ٤٥٤).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢ / ٣٣٢).

المشركة، فالأمة المؤمنة بالله وبرسوله، خير من الحُرة المشركة الكافرة، وإن شَرُف نسبها، وكَرُم أصلها[١]. فهو يرى تقييد الأمة بالمملوكة، والمشركة بالحُرة، ورجَّحه ابن الجوزي (٥٩٧هـ) في تفسيره زاد المسير، يقول: «وفي المراد بالأمة قولان: أحدهما: أنها المملوكة، وهو قول الأكثرين، فيكون المعنى: ولنكاح أمة مؤمنة، خير من نكاح حُرّة مشركة، والثاني: أنها المرأة، وإن لم تكن مملوكة، كما يقال: هذه أمة الله، هذا قول الضحاك، والأول أصح»[٢].

وقد نقل البقاعي (٨٨٥هـ) هذا القول عن أبي الحسن الحرالي (٦٣٨هـ)، يقول: «قال الحرالي: فانتظمت هذه الآيات في تبيين خير الخيرَين، وترجيح أمر الغيب في أمر الدِّين، والعقبى في أدنى الإماء من المؤمنات، خلقًا وكونًا، وظاهر صورة، على حال العين في أمر العاجلة من الدنيا، في أعلى الحرائر من المشركات، خلقًا وظاهر صورة وشرف بيت. انتهى»[٣]. وتطرق أبو حيان (٧٤٥هـ) لهذا القول في تفسيره، يقول: «﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾، الظاهر أنه أريد بالأمة الرقيقة، ومعنى: خير من مشركة، أي: من حُرّة مشركة، فحذف الموصوف لدلالة مقابله عليه، وهو أمة، وقيل: الأمة هنا بمعنى المرأة، فيشمل الحُرّة والرقيقة»[٤].

وذهب عديد من المفسرين إلى أن المراد بالأمة مطلق المرأة، فيشمل الحُرّة والمملوكة، وقد نقل القرطبي (٦٧١هـ) هذا القول عن القاضي أبي العباس الجرجاني (٣٩٢هـ)[٥]، وقال به: الزمخشري (٥٣٨هـ)[٦]، ونقله ابن العربي (٥٤٣هـ)[٧]، والرازي (٦٠٦هـ)[٨] والبيضاوي (٦٨٥هـ)[٩].

ورجح ابن عاشور (١٣٩٣هـ) أن لفظة الأمة مختصة بالمملوكة، وردّ على من يرى أنها لمطلق المرأة، يقول: « فالأمة هنا هي المملوكة، والمشركة الحُرّة، بقرينة المقابلة بقوله: ﴿وَلَأَمَةٌ

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٤/ ٣٦٨).
(٢) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي (١/ ١٨٨).
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (٣/ ٢٧١).
(٤) البحر المحيط، أبو حيان (٢/ ٤١٧).
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣/ ٧٠).
(٦) ينظر: تفسير الكشاف، الزمخشري (١/ ٢٦٤).
(٧) ينظر: أحكام القرآن، ابن العربي (١/ ٢١٨).
(٨) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي (٦/ ٤١٢).
(٩) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (١/ ١٣٩).

مُّؤۡمِنَةٌ﴾، فالكلام وارد مورد التناهي في تفضيل أقلّ أفراد هذا الصنف، على أتم أفراد الصنف الآخر، فإذا كانت الأمة المؤمنة خيرًا من كل مشركة، فالحُرّة المؤمنة خير من المشركة، بدلالة فحوى الخطاب التي يقتضيها السياق، ولظهور أنه لا معنى لتفضيل الأمة المؤمنة على الأمة المشركة، فإنه حاصل بدلالة فحوى الخطاب لا يشكّ فيه المخاطبون المؤمنون، ولقوله: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ﴾ فإن الإعجاب بالحرائر دون الإماء، ... ووقع في (الكشاف) حمل الأمة على مطلق المرأة، لأن الناس كلهم إماء الله وعبيده، وأصله منقول عن القاضي أبي الحسن الجرجاني، كما في القرطبي، وهذا باطل من جهة المعنى، ومن جهة اللفظ، أما المعنى فلأنه يصير تكرارًا مع قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ إذ قد علم الناس أن المشركة دون المؤمنة، ويفيت المقصود من التنبيه على شرف أقل أفراد أحد الصنفَين، على أشرف أفراد الصنف الآخر، وأما من جهة اللفظ فلأنه لم يرد في كلام العرب إطلاق الأمة على مطلق المرأة، ولا إطلاق العبد على الرجل إلا مقيَّدَين بالإضافة إلى اسم الجلالة في قولهم: يا عبد الله، ويا أمة الله، وكون الناس إماء الله وعبيده، إنما هو نظر للحقائق لا للاستعمال، فكيف يخرج القرآن عليه»[(١)].

وقد ذكر السيوطي في تفسيره لهذه الآية الخلاف في معنى كلمة (أمة)، وعلّق على القول الذي يذهب إلى أن المراد بالأمة المملوكة، التي هي في مقابل الحُرّة المشركة، وذكر أنه على هذا التفسير يكون في الآية من المحسِّنات البديعية نوعان: الاحتباك، والطباق، ففي الآية احتباك، وثلاث طباقات، ولم أقف على أحد ذكر هذه المحسِّنات، أو تطرّق لها في تفسيره قبل أن يذكرها السيوطي، يقول: «﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤۡمِنَةٌ﴾ ابن الحاجب: (المراد كل أمة مؤمنة، فهو المصحح للابتداء، لا الوصف)، ﴿خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ﴾، أي من حُرّة مشركة، ففيه طباقان، وقيل: لا تقدير، وإطلاق المشركة ليعم الحُرّة والأمة، تنبيهًا على أن الخيرية علّية باعتبار الشرك فقط دون الحرية، قلت: ويحتمل أن يقدر في الجملة الأولى: ولو كرهتم، في مقابلة قوله في الثانية: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ﴾ كما قدر في الثانية: حُرّة، في مقابلة قوله في الأولى: ﴿وَلَأَمَةٞ﴾، فيكون في الآية احتباك، وثلاث طباقات»[(٢)].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢/ ٣٦١- ٣٦٢).
(٢) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٤٥٨).

والاحتباك هو: أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من واحد منهما مقابله، لدلالة الآخر عليه، ففي الآية اجتمع متقابلان، لفظة (أمة) وتقدير (حرة)، ولفظة: (ولو أعجبتكم) وتقدير: (ولو كرهتم)، فحُذف من الثاني (حرة) لدلالة لفظ (الأمة)، وحُذف من الأول (ولو كرهتم) لدلالة (ولو أعجبتكم)، والطباقات الثلاث هي بين: الأمة والحُرّة، وبين: المؤمنة والمشركة، وبين: ولو أعجبتكم، ولو كرهتم.

٩- **قال تعالى:** ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٧]

لم يقف السيوطي في تفسيره (قطف الأزهار في كشف الأسرار) عند هذه الآية كثيرًا، لأنه وقف عندها طويلًا في كتاب آخر، وأفردها بتأليف خاص، فغاص في إعجازها، وكشف عن حسن نظمها، وسلّط الضوء على إبداعها، يقول معلقًا على هذه الآية: « وقد وقع الكلام فيما تضمّنته هذه الآية من أنواع البديع، فاستخرجت منها مئة وعشرين نوعًا، وأفردتها بتأليف»[(١)].

والتأليف الذي يقصده السيوطي هو كتابه الذي أسماه: (فتح الجليل للعبد الذليل، رسالة في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾)، وهي رسالة تقع فيما يقرب من خمسين صفحة، ذكر فيها مئة وعشرين موضعًا من مواضع البيان والبديع، فذكر فيها خمسة وستين نوعًا وفنًّا من فنون البلاغة، وقد مزج في رسالته بين فنون البلاغة كلها، وذلك تحت مسمّى الأنواع البديعية، وفي رسالته وظّف مهاراته البلاغية، وسعة اطلاعه في استقراء النصوص، وإعادة النظر فيها، فأظهر براعته، وذكر فيها مالم يذكره أو ينتبه له من كان قبله من العلماء والمفسرين.

يقول في مقدمة رسالته: «وقررت فيها بضعة عشر نوعًا من الأنواع البديعية، ثم وقع التأمّل فيها بعد ذلك، ففتح الله بزيادة على ذلك حتى جاوزت الأربعين، ثم قدحت الفكر، فلم تزل تستخرج وتنمو، إلى أن وصلت بحمد الله إلى مئة وعشرين نوعًا، فقد أردت تدوينها في هذه الكراسة، ليستفيدها من له غرض في الوقوف على أسرار التنزيل، راجيًا من الله الهداية إلى أقوم سبيل»[(٢)].

(١) قطف الأزهار، السيوطي (١/ ٥٠٩).
(٢) فتح الجليل للعبد الذليل، السيوطي (١٥-١٦).

الخاتمة

يُسلِّط هذا البحث الضوء على أهم انفرادات السيوطي البلاغية، وترجيحاته واختياراته البيانية، في سورة البقرة، منتقاة من تفسيره (قطف الأزهار في كشف الأسرار)، ويحاول دراسة هذه الانفرادات، والتعليقات البلاغية، ومن وافقه عليها من المفسرين، ومن خالفه من العلماء والبلاغيين.

ومن أبرز نتائج هذا البحث:

١- تفسير قطف الأزهار يغلب عليه النقل من كلام العلماء، لكنه مع ذلك يحتوي على كثير من الآراء البيانية، والملامح البلاغية، التي ذكرها مؤلفه تعقيبًا على كلام غيره من العلماء، أو تفرد بها دون أن يلمحها من قبله.

٢- يهتم السيوطي بالفنون البلاغية، ويكشف عن إعجازها، ويجلّيها تجليةً واضحةً، فلا يكاد يترك في كتابه آيةً فيها ملمح بياني، أو فنّ بديعي، إلا وأشار إليه.

٣- تُعدّ تعليقات السيوطي وانفراداته البلاغية، من أهم الملامح التي يجب على الباحث البلاغي التنبّه لها، والاهتمام بها، فكتاب قطف الأزهار يُعدّ من أهم كتب السيوطي، حيث تناول فيه المؤلف آيات القرآن الكريم بالشرح والتفسير، وبيان ما فيها من فنون بلاغية، وصور بديعية، ولمحات إعجازية، نقلًا عن غيره، أو اكتشافًا من نفسه.

وختامًا أحمد الله ﷻ على توفيقه وإعانته، وأسأله تعالى أن يسدد الجهود، ويغفر الزلل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

أ - المصادر:

١- قطف الأزهار في كشف الأسرار، السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، تحقيق: د. أحمد بن محمد الحمادي، ط١، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤١٤هـ.

ب - المراجع:

١- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (د.ط) (د.م) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ.

٢- أحكام القرآن، ابن العربي: القاضي محمد بن عبد الله، علَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، ط٣، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

٣- أحكام القرآن. الجصاص، أبو بكر الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

٤- أسرار التكرار في القرآن، المسمى (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان). الكرماني، محمود بن حمزة بن نصر. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا. (د.ط) (د.م)، دار الفضيلة، (د.ت).

٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل. البيضاوي، ناصر الدين عبدالله بن عمر. تحقيق: محمد المرعشلي. ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ.

٦- الإيضاح في علوم البلاغة. القزويني، جلال الدين محمد بن عبدالرحمن. تحقيق: إبراهيم شمس الدين. ط١، بيروت: دار الكتب العليمة، ١٤٢٤هـ.

٧- البحر المحيط في التفسير. أبو حيان، محمد بن يوسف. تحقيق: صدقي محمد جميل. (د.ط)، بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠هـ.

٨- بديع القرآن. ابن أبي الأصبع، عبدالعظيم بن عبدالواحد المصري. تحقيق: حفني محمد شرف. (د.ط) (د.م) نهضة مصر للطباعة والنشر (د.ت)

٩- التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد). ابن عاشور، محمد الطاهر (د.ط)، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

١٠- تفسير ابن عرفة. ابن عرفة، أبو عبدالله محمد بن محمد. تحقيق: د. حسن المناعي. ط١، تونس: مركز البحوث بالكلية الزيتونية، ١٩٨٦م.

١١- جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري: محمد بن جرير، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠هـ.

١٢- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: محمد بن أحمد، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

١٣- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: ١، مصر: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٧هـ.

١٤- **درة التنزيل وغرة التأويل.** الإسكافي، محمد بن عبدالله. تحقيق: د/ محمد مصطفى آيدين. ط١، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤٢٢هـ.

١٥- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.** الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبدالله. تحقيق: علي عبد الباري عطية. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.

١٦- **زاد المسير في علم التفسير**، ابن الجوزي: عبدالرحمن بن علي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٢هـ.

١٧- **غرائب القرآن ورغائب الفرقان.** النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد. تحقيق: الشيخ زكريا عميرات. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٦هـ.

١٨- **فتح الجليل للعبد الذليل**، السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، اعتنى بها: د. محمد رفعت زنجير، ط١، بيروت: مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ.

١٩- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل.** الزمخشري، محمود بن عمرو. ط٣، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ.

٢٠- **كشف المعاني في المتشابه من المثاني.** ابن جماعة، محمد بن إبراهيم الكناني. تحقيق: الدكتور عبدالجواد خلف. ط١، المنصورة: دار الوفاء، ١٤١٠هـ.

٢١- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ه.

٢٢- **معالم التنزيل في تفسير القرآن.** البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، تحقيق: عبدالرزاق المهدي. ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٥هـ.

٢٣- **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير).** الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. ط٣، بيروت: دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ.

٢٤- **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل.** الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير. تحقيق: عبد الغني الفاسي. (د.ط) بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت).

٢٥- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، البقاعي: إبراهيم بن عمر، (د.ط) القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، (د.ت).

٢٦- **النكت والعيون**، الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (د.ط) بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت)

ج - المجلات والدوريات:

- **الجناس التام في القرآن، الغمراوي**، محمد أحمد، مجلة الرسالة، العدد ١٠٢٢ تاريخ ٢/ ٢/ ١٩٥٣م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الملخص	٥٣٢
المقدمة	٥٣٣
التمهيد	٥٣٦
١- نبذة مختصرة عن جلال الدين السيوطي	٥٣٦
٢- نبذة عن كتاب (قطف الأزهار في كشف الأسرار)	٥٣٧
٣- مصادر الكتاب	٥٣٨
المبحث الأول: انفرادات السيوطي وتعليقاته البلاغية إلى نهاية الجزء الأول	٥٤٠
المبحث الثاني: انفرادات السيوطي وتعليقاته البلاغية من الجزء الثاني حتى نهاية السورة	٥٥١
الخاتمة	٥٦٥
فهرس المصادر والمراجع	٥٦٦
فهرس الموضوعات	٥٦٨